الرِّسَالَةُ البِدْعُ
في التَّعبير عن المتكلّم المُفْرَدِ
من دون إرادة التعظيم والتفخيم
بصيغةِ الجَمْع

أ. د. محمَّد رضوان الدّاية(*)

(١)

في المُصطلحات البلاغية نوع يدعى: «الالتفات»(١)؛ على أَنْ له أسماءً أُخرى مثل: «الصَّرف» و«الاعتراض» و«الاشتراك» و«الاستدراك»؛ وأدخله ابن قتيبة في: «مُخَالفة ظاهر اللفظ مَعْناه»؛ ومن أَمثلته عليه قولُ النابغة الذبياني(٢):

يا دارَ ميَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأَبَدِ

بدأ بأسلوب الخِطاب، ثم التفتَ إلى أُسلوب الغَيْبَة.

وبعد زمانٍ من ظُهور مصطلح (الالتفات) والكلام فيه، جَعل ابنُ الأثير هذا النوع البلاغي (وهو عنده من الصّناعة المعنوية) ثلاثة أَقسام(٣):

(*) أستاذ الأدب والنّقد في جامعة دمشق.

(١) جمع ما يخصّ هذا النّوع وفَصَّل فيه د.أحمد مطلوب في «معجم مصطلحات البلاغة»، الجزء الأول منه: ٢٩٤-٣٠٣.

(٢) ديوان النابغة الذّبياني (المعلقة).

(٣) د. أحمد مطلوب، معجم مصطلحات البلاغة: ٢٩٨-٣٠٢.

الأوّل: الرّجوع من الغَيْبَةِ إلى الخِطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ويكون ذلك لفائدةٍ اقتَضَتْه. و**مثال الأوّل**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤] ثم قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. و**مثال الثاني**: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١ – ١٢]. فإنه قال: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ و: ﴿أَوْحَىٰ﴾(*).

ومن الرُّجوع من خِطاب النَّفْسِ إلى خِطاب الواحد قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ – ٥].

– ومن الرُّجوع من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾ [يونس: ٢٢].

والثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأَمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، ومِن الأول: ﴿..إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ...﴾ [هود: ٥٤]. ومن الثاني: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٩].

والثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي. فالأول مثل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ [فاطر: ٩]. والثاني مثل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

(*) هذا المثال ليس مناسباً للنوع الثاني من القسم الأول، وهو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ والالتفات فيه في ضوء العبارة الشارحة المفسِّرة من الغيبة إلى المتكلم بضمير الجمع. = [المجلة].

على أنَّ في الأساليب العربيّة **ما لم يقف عنده اللغويون** (في ملاحظة الأساليب ودراستها) **ولا البلاغيون** (عند استعراض علمَي البديع والمعاني): **مثل استعمال صيغة الجمع للمتكلّم المفرد، من دون إرادة التعظيم، أو التوقير، أو ما شابه ذلك.**

: **ومثل كلام المتكلّم يُريد نفسَهُ ويلتفتُ ابتداءً إلى ضمير الغائب،** وأَخصّ الشعراء بمزيّة في استعمال هذا النمط.

: ومثل **الالتفات عن الذّات** (الاسم الظاهر والضَّمير المناسب) **إلى شخص آخر يتحدّث عنه وهو يريدُ نفسه.**

ونقول في هذه الظَّواهر مثل ما قيل في أَنواع الالتفات التي ذكرها أَهْلُ التفسير والبَلاغة واللّغة: إن هناك أَغراضاً رَمى إليها الشّاعر (وغيره) ومقاصد: جليّةً كانت، أَو هي، تحتاجُ إلى إيضاحٍ واسْتِخْراج.

وفي **الأَساليب العربيّة** أن يتحدّث أحدهم عن نفسه وبعض شؤون حياته مستعملاً أُسلوب الغائب، أو ضمير الغائب. ومنه قولُ القَتّال الكلابي[٤]، مُصَوّراً نفسه، مفصّلاً:

إِذا هَمّ هَمّاً لم يَرَ اللّيلَ غُمَّةً ... عليه، ولم تصعُبْ عليه المراكبُ[٥]

جَلِيدٌ، كريمٌ خِيْمُهُ، وطباعُهُ ... على خَير ما تُبْنى عليهِ الضَّرائبُ[٦]

إذا جاعَ لم يفرَحْ بأكلةِ ساعةٍ ... ولم يَبْتَئِسْ من فقدها وهو ساغِبُ[٧]

---

(٤) عبادة (أَو عبيد) بن مجيب من بني كلاب بن عامر، شاعر لصٌّ فاتك بدوي كان يألفُ القفر، (توفي نحو سنة ٧٠ كما قدّره د.عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ١: ٤٣٣-٤٣٥).
- وللقتّال ديوان مجموع من مصادر التراث اعتنى به الدكتور إحسان عباس.

(٥) همّ بالأمر همّاً: عزم على القيام به. والغُمّة، كالغمّ: الكرب.

(٦) جليد من جَلُدَ: صبور على المكروه. والخِيْمُ: السجيّة والطبيعة. والضرائب جمع ضريبة، والضريبة: الطبيعة والسجيّة.

(٧) ساغب: جائع.

يَرى أَنَّ بعد العُسْـرِ يُسْـراً ولا يَـرى إذا كانَ يُسْرٌ أَنَّـهُ - الـدَّهْرَ - لازِبُ[٨]

- ومنه قول أميّة بن أَبي عائذ الهُذَليّ[٩] يتشوّق إلـى أهلـه بمكّـة، وكـان نزيلَ مصر عند واليها عبد العزيز بن مروان، وكان عبدُ العزيز قـد رَغِـبَ إليـه في البقاءِ بمصر:

مَتى راكبٌ من أَهْلِ مِصْـرَ، وأَهْلُـه بمكَّةَ، من مصر العشـيّةَ راجِـعُ[١٠]

بلى! إنَّها قد تَقْطَـعُ الخَـرْقَ ضُـمَّرٌ تباري السُّرى، والمُسعفون الزَّعـازعُ[١١]

- فالشاعر يتحدّث عن نَفْسِه هنا بصيغة الغائب. وقال: «راكبٌ من أَهـل مصر» يعني نفسه، زائر لمصر قد طال مُكْثُه فيها حتى أصبح كأَنه مـن أَهلهـا. وأَهلُه (من زوج وولد وقريب...) يسكنون مكَّة. وفـي شـرح د.عمـر فـروخ على البيت: «العَشِيّةَ: آخر النَّهار (في آخر عُمره، قـد أَصْـبَح كبيـراً جِـدّاً فـي السنِّ، فيريدُ أَن يرى أهله قبل أَن يموت).

واختيار المتكلّم صيغة الجمع بدلاً عن صـيغة الإفـراد لغـرض التَفـاخر والتَّعاظُم، وإظهارِ التّفَوُّقِ على الخصم أو المُنَافِس معروفٌ مـن قـديمِ حيـاةِ اللغة، وحركةِ الأَدب، وخُصوصاً في الشعر، والأدلة على هذا كثيرة. (وليس الاستطراد إليها من منهج هذا البحث).

- وللمفسّرين كلام مطـول فـي أسـاليب القـرآن الكـريم، ومنهـا اسـتخدامُ

---

(٨) لازب: لازم.

(٩) أُمية بن أَبي عائذ العَمْري، من هُذَيل، من أَهل بادية الحجاز. من شعراء العصر الأُمـوي. وله ترجمة في كتاب الأغاني. وقدّر الزركلي في الأعلام وفاة أمية سنة ٧٥هـ.

(١٠) في أخبار أمية أنّ عبد العزيز أَذِن له بالعودة إلى الحجاز، وكان قد نال عنـده، وعنـد بنـي أميّة عامةً مكانةً، وحُظوة.

(١١) الخَرْقُ: الفلاةُ المقفرة الواسعة. الضُّمَّرُ (جمع ضـامر وضـامرة): الناقـة المضـمَّرة، السـريعة القادرة على قطع المسافات الطوال. والسّرى: السير، السفر ليلاً. الزعازع: الرياح الشديدة.

صيغة الجمع: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١] و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ.. ﴾ [الشرح: ١ – ٢]...، واستخدام صيغة الإفراد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١١ – ١٣].

وفي: لمسات بيانية[١٢] قال د.السّامرائي: إنه سبحانه وتعالى، «في كل موطن في القرآن الكريم – وبلا استثناء – إذا استعمل ضمير التعظيم لا بدّ من أن يأتي بعده بما يدل على الإفراد حتى يُزيل أيَّ شك من شائبة الشرك؛ لأنَّ مَنْ نزل عليهم القرآن كانوا عريقين في الشرك... ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا... ﴾ [الفتح: ١ – ٣].

وللكلام في هذا الملمح تبيانٌ وتفصيلٌ في مظانّه.

وورد الأسلوبان في حديث رسول الله ﷺ:

١ – في الحديث: «بَلّغوا **عني** ولو آية»[١٣].

٢ – وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أُعطيكم ولا أَمنعكم، إنّما **أنا قاسمٌ**: أضَعُ حيثُ أُمِرْتُ»[١٤].

٣ – وفيه أَيضاً «نَضّر الله امرأً سَمِعَ **مِنّا** حديثاً فحفظه حَتّى يُبلّغه غيره، فإِنَّه رُبّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه، وربّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه»[١٥].

---

(١٢) فاضل السّامرائي: لمسات بيانية: ٢٥٠.

(١٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب: الأنبياء (ما ذُكر عن بني إسرائيل) برقم ٣٤٦١.

(١٤) رواه البخاري في كتاب: فرض الخُمس باب قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾، برقم ٢٩٤٩.

(١٥) أخرجه أحمد في مُسنده (برقم: ٢١٥٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه بإسنادٍ صحيح، ولفظه: نضّر الله امرأً سمع عَنّا فحفظه مني يبلغه غيره، فإنه ربّ حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه. وفي سنن ابن ماجه: ٢٣٠، وهو في سنن أبي داود: ٣٦٦٠، والترمذي ٢٦٥٨. وروي «وربّ حامل فقهٍ ليس بفقيه».

٤- وفيه أَيضاً: «...اتَّقُوا اللهَ فإِنَّ أَخونكم **عندنا** من طلَب العَمل» وفي فيض القدير (شرح الجامع الصغير) للمناوي عند كلمة (عندنا) قال: أي: «معشر المسلمين، أو النون للتعظيم». انتهى[١٦].

وللكلام على هذا الملمح في الحديث النبوي مقام مستقلّ مستوفى إن شاء الله تعالى.

وفي الالتفاتِ نوعٌ جَرى على أَلسنةِ الشّعراء من أَيّام العصر الجاهليّ، واستمرّ مع شعراء كُثُرٍ وأدباء في العُصور التالية، وصولاً إلى العصر الحديث: **وهو التفاتٌ ينتقلُ فيه الشّاعِرُ (وغيره) من أسلوب المتكلّم بصيغة المُفرد إلى المتكلم بصيغة الجمع، يقصدُ نفسَهُ في الحالين، دون أن يكون المراد باستعمال أسلوب المتكلّم بصيغة الجمع، الفخرَ أو التّعاظمَ أو التفخيم. يورد الشاعر الصّيغتين، وهو يريد نفسه.**

ويقال مثلُ هذا في استخدام ضميرِ المخاطَب بصيغة الجمع، وهو يريد المُفرد، دون قصد التّعظيم.

ووورودُ هذا الأُسلوب في الشّعر القديم يُؤصِّله، ويتيحُ للشعراء المُحْدَثين أن يجروا على ذلك النّسْق، ويفيدوا منه في كلامهم شعراً ونثراً.

وفي شعر **حاتم الطّائي** المشهور قصيدةٌ حاورَ فيها زوجته **ماويّة** وعرَض عليها، وعلى النّاسِ مذهَبَهُ في الجُود، ورأيه في قضيّة الفقر والغنى، وأصَرَّ على ما اختار من سُلوكٍ انتقل من العادة إلى ما يُشبه الطّبع[١٧]:

أماوِيَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

(١٦) شرح الجامع الصغير: فيض القدير ١: ١٣٠. وفي رواية لأحمد في المسند ١٩٥٠٨ «عندي» بدل: عندنا.

(١٧) ينظر نص القصيدة كلها في الأغاني (دار الكتب) ١٧: ٣٨٤-٣٨٧.

أَمــاوِيَّ إنــي لا أقــولُ لســائلٍ ... إذا جـاءَ يومـاً: حَـلّ فـي مالنـا نَـزْرُ
أَمـاوِيَّ مـا يُغْنِـي الثَّـراءُ عـن الفَتـى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ
أَمــاوِيَّ إن يُصــبحْ **صَــدايَ** بقفــرةٍ ... من الأَرضِ لا مـاءٌ **لـديَّ** ولا خَمْـرُ
تَرَيْ أنّ ما **أنفقْـتُ** لـم يـكُ ضَـرَّني ... وأَنَّ يـدي ممّـا **بخلْـتُ** بِـهِ صِـفْرُ
وقـد عَلِـمَ الأقـوامُ لـو أَنَّ حاتمـاً ... أَرادَ ثــراءَ المــالِ كــانَ لــه وَفْــرُ
غَنِيْنـا زمانـاً بالتَّصـعلك والغِنـى ... كما الدَّهْرُ في أَيامِهِ العُسْرُ واليُسْـرُ[18]
فمـا **زادنـا** بَغيـاً علـى ذي قَرابَـةٍ ... غِنانـا، ولا أَزْرى **بأحسـابنا** الفَقْـرُ
وما ضَرَّ جاراً يا ابْنَةِ القـومِ فـاعلمي ... **يُجاوِرُنـا** أَلّا يكــونَ لــهُ سِــتْرُ
بَعينـيَ عـن جـاراتِ قَـوْمِيَ غَفلـةٌ ... وفي السَّمْعِ منّي عن حَـديثِهِمُ وَقْـرُ

تحدّث حاتم عن نفسِه بضمير **المـتكلّم المفـرد**: «لا أَقـولُ» و«صـداي» و«لديَّ» و«أنفقتُ» و«ضرّني» و«بخلْتُ» واستوفى مراده من خطـاب ماويّـة، وتقرير مذهبه في الجود والإنفاق، (اقْتَنعَتْ بما قال أو لم تقتنع).

ثم **التفت الشاعر**، وتحدّث عن نفسه بصيغة **الغائب**: «لو أن حاتمـاً أراد ثراء المال»، واكتفى من هذا الأسلوب ببيت واحد.

ثم **التفت مرّة أُخرى** فرجـع إلـى ضـمير المـتكلّم؛ ولكنـه **ضـمير المـتكلم بصيغة الجمع**، واستغرق ذلك منه ثلاثة أبيات، وضّح فيها مذهبه من الصَّـعلكة؛ وذكر أحوال حياته التي تراوحت بين الفقر الشديد (بالتصعلك كمـا قـال) وبـين الغنـى. وهـذا موقـفٌ لا يقتضـي أن يكـون ضـمير الجمـع للتفـاخر والتعـاظم، ولكنه: **التعبيرُ بصيغة الجمع نيابةً عـن صـيغة الإفـراد علـى نـوع مـن الالتفـات،**

(١٨) في حواشي (الأغاني) ط دار الكتب أنَّ هناك رواية بالعين المهملة «عُنينا»، وقد اختارها د.عمر فرّوخ (من دون الإشارة إلى غَنينا)، وأعتقد أنها رواية ضعيفة أو تصحيف.

ولعلّ من المناسب أن ندعوه **الالتفات الذاتيّ**[١٩]، ونلاحظ قوله في الثلاثة الأبيات: «غنينا زماناً» و«فما زادنا» و«غِنانا» و«أحسابنا» و«يجاورنا».

فلما استَفْرَغَ حاتمٌ ما أرادَ أن يقوله بصيغة الجمع **التفت من نفسِه إلى نفسِه**، وقال:

بِعَيْنِيَ عن جاراتِ قوميَ غفلةٌ وفي السَّمْعِ منّي عن حديثِهِمُ وَقْرُ

وكأنّ الشاعر أراد توكيد سُلوكه الأَخلاقي الذي اختاره في العِفّة وصيانة الجوار، وتكريم المرأة بنبلٍ منه وأريحيّةٍ؛ فرجَع إلى ضمير المتكلّم بصيغة الإفراد؛ وهذا يشبه مَنْ يُقْسِمُ على أمر، أو يتعهّدُ بشيء، أو يُصِرُّ على مَسْلَكٍ نبيل، فهو يُخْلِصُ كلامَهُ لِذلك الأُسلوب، ويكتفي بأسلوب الإفراد لأنه أليقُ بالمقاصدِ التي يريد.

وفي شعراء عصر الخضرمة بين الدّولة الأمويّة والعباسيّة نبَغ بشار بن برد[٢٠]، ومن شعره (ممّا نحن بسبيله):

مليكةُ قد وُصِفْتِ **لنا** بِحُسْنٍ **وإِنَّا لا نَراكِ فأَلْمِسِيْنا!**

وهو يتحدّث عن نفسه، فأَوْرَد صيغة الجمع، بديلاً عن صيغة المفرد، وليسَ في مَقْصِد الكلام تعظيمٌ لنفسه ولا تفخيم.

وفي قطعة لمحمود الورّاق[٢١] في الغزل (وهو من شعراء صدر الدولة العباسيّة):

سَقْياً لأَيامٍ خَلَتْ وكأَنَّ أوْجُهَها رياضُ

---

(١٩) وسيمر – بعد – أنه يمكن أن يدعى: **الالتفات الوجداني**، و**الالتفات الداخليّ**.

(٢٠) ديوان بشار (٤: ٢٠٦). والأصل في الأَغاني (دار الكتب المصرية) ٣: ٦٧، و: ١٥، ٦١. وللشعر قصّة مروية ثمّة.

(٢١) شاعر توفي نحو سنة ٢٣٠هـ.

أيّـامَ **يُحيينـا** الهـوى وتُميتنا الحَدَقُ المِرَاضُ!

فالكلام منظومٌ عن ذكرياتٍ للشّاعر يتذكّرها، فعبّر عن نفسِه بصيغة المتكلم الموضوع للجماعة: «يُحيينا، وتميتنا».

وفي قصيدة: «واحَرّ قلباهُ» يرتَفِعُ صوتُ المتنبي بين وَصْف الذاتِ، بوقائع يذكرها، وبين العِتاب الصَّدّاح الذي يضعُ الرَّجُلَيْن: الشاعر المادحِ والأمير الممدوح على صعيد من المخاطبة والاستماع، في ظُهورٍ لشخصيّةِ أَبي الطيّب مُصَاحَبٍ برنينٍ[٢٢]؛ ونبدأ من البيت السابع عشر:

وجاهلٍ مَدّهُ في جَهْلِهِ ضَحكي حتَّى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ وفَمُ
ومُهْجةٍ مُهجتي من همِّ صاحبها أدركتُها بجوادٍ ظهرُه حَرَمُ
ومُرْهفٍ سرتُ بين الجحفلين بهِ حتّى ضربْتُ وموجُ الموتِ يلتطِمُ
فالخيلُ والليل والبيداء تعرفني والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبتُ في الفَلَواتِ الوحشَ منفرِداً حتّى تعجّب مِنِّي الغَورُ والأَكَمُ
يا من يعزُّ **علينا** أن نفارقَهُمْ **وجدانُنا** كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ
ما كان **أَخْلَقنا مِنكم** بتكرمةٍ لو أَنَّ **أَمْرَكمُ** من **أمرنا** أَمَمُ
إن كان **سرّكُمُ** ما قال **حاسِدُنا** فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ
وبيننا لو **رعيتم** ذاكَ معرفةٌ إن المعارفَ في أهل النّهى نِعَمُ
كم تطلبون **لنا** عيباً **فيُعجزكم** ويكرهُ اللهُ ما **تأتونَ** والكرمُ

والتفت المتنبي عند البيت الرابع والعشرين، **وعَبّر عن نفسه بضمير الجمع، كما عَبّر عن شخصِ سيف الدولة بضمير الجمع أيضاً**. وكان المقام يقتضي، على ما جَرى عليه الشعراء غالباً في شعر المديح، أن يُبقي على

(٢٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح التبريزي (الموضح ٤: ٥٢٤ وما بعدها).

ضمير المتكلم المُفرد وهو يعبّر عن نفسِه، ولكنْهُ التفتَ، وعَدَل، وخرج إلى ضمير المتكلم الموضوع - عادةً - للجمع.

ورجع أبو الطيب في البيت التاسع والعشرين إلى ضمير المتكلم المفرد على الأصل المعروف في مجرى الأداء اللغوي (الاعتياديّ). قال:

ما أبعَدَ العَيْبَ والنُّقصانَ عن **شرفي** **أنا** الثريّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

ليت الغَمام الذي **عندي** صَواعِقهُ يُزيلهنّ إلى مَنْ عنده الدِّيَمُ

وأَلْمحَ في البيت الحادي والثلاثين إلى عَزْمِه على المَسِيْرِ عن حلب، وذكر أنَّ طريقه يمرّ على ضُمَير، قبل دمشق بمراحل قليلة، فقال في البيتين الحادي والثلاثين والثاني والثلاثين:

أَرى النّوى تقتضيني كلَّ مرحَلةٍ لا تستقلُّ بها الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

لئن تَركْنَ ضُمَيْراً عن مَيامِننا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهم نَدَمُ!

والتفت ثانيةً، في بيتٍ يجري في مجرى القصيدة، ويتوجَّهُ الكلام فيه على وجهين:

أحدهما: الظاهر من الخطاب العام، كأنّه حكمةٌ أَو ما يشبه الحكمة:

إذا تَرحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا أَلَّا تفارِقَهُمْ فالرَّاحِلُونَ هُمُ

والثاني: المعنى الملموح، المُستفاد من السياق. ويكونُ الكلام من الشاعر إلى نفسه، وتسميعاً لغيره؛ فهو الذي سيفارِق، مُضطراً؛ ومَنْ غادرَ مضطراً فالرَّاحِل المُغادِر على الحقيقة المعنوية (والاجتماعية والإنسانية) هو الطرف الآخر المتسبّب؛ ويكون المعنى مستفاداً من الأثر المشهور: «قتله الذي أَخْرَجَه»[٢٣]!

وعَقّب المُتنبي في البيت التالي:

(٢٣) انظر ترجمة عمار بن ياسر رضي الله عنه في الإصابة مثلاً.

شَـرُّ الـبلاد مكـانٌ لا صـديقَ بـهِ وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسـانُ مـا يَصِـمُ

فلمـا تـمَّ لـه مـا أراد مـن الالتفـات، والإدلاءِ بِمُـرادهِ مـن المعـاني والإشارات، رَجع إلى الكلام بصيغة المفرد:

شَـرُّ الـبلاد مكـانٌ لا صـديقَ بـهِ وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسـانُ مـا يَصِـمُ

وشَـرُّ مـا قَنَصَـتْهُ **راحتـي** قَـنَصٌ شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيه والرَّخَمُ[٢٤]

وتبدو هذه الظاهرة التي نتابعها جليّةً في شعر ابن زيدون في بعض قصائده التي أَنشدها في «ولَّادة»، وأقف هنا عند أمثلة من ثلاثة نصوص من ديوانه.

١) قال في قطعةٍ من ثلاثةِ أَبيات – كما وردت في الديوان[٢٥]:

لـو تُركْنـا بـأنْ **نعـودَكِ عُـدْنا** **وقَضَـيْنا الـذي عَلينـا، وعُـدْنا**

غيـرَ أَنَّ الهـوى اسـتفاضَ حـديثاً **فانْتَحَتْنـا** العيـونُ لمّـا **حُسِـدْنا**

فلـوَ انَّ النّفـوسَ تُقْبَـلُ مِنَّـا **لَسَـمَحْنا** بهـا – فِـداءً – **وجُـدْنا!**

فالخطاب من الشَّاعر إلى من يخاطبُ، وهي واحدةٌ، «نَعُودكِ» وهو يتحدّث عن نفسه، ولكنه اختار ضمير الجمع «تُركْنا» و«قَضَيْنا». والبيت الثاني يحتمل الكلام على اثنين (هو والمخاطبة)، ثم قال في البيت الأخير:

فلو انَّ النفوس تُقْبَلُ «مِنّا» «لسمحنا» و«جُدْنا». وهذا جميعاً يخصُّه وحده.

٢) وقال في قصيدة أخرى مشهورة[٢٦]:

---

(٢٤) الموضح ٤: ٥٢٥.

– قال في الشرح: يقول: شرّ البلاد مكان يُعوزكَ فيه الصديق. وشرّ ما يَقْتنصه الإنسان قَنَصٌ تشترك فيه البزاةُ الشهب والرخمُ؛ لأنّ البزاة تصيدُ، والرَّخَمُ إنّما تقعُ على الجِيَف. فكأنه جعل ما يصيبه في هذه البلاد من الرزق شيء لا خير فيه، لأن الرخم يقع عليه فيصيبُ منها كما تصيب البزاة.

(٢٥) ديوان ابن زيدون (تحقيق علي عبد العظيم): ١٥١–١٥٢.

إنـي ذكرتـك بـالزهراء **مشـتاقا** والأفق طَلْقٌ ووَجْهُ الأرضِ قد راقا
والروضُ عن مائِه الفضّـيّ مبتسـمٌ كمـا شَـقَقْتِ مـن اللَّبَّـاتِ أطواقـا

فذكر نفسه بصيغة المُتكلم المفرد «ذكرتُكِ»، وذكر ولّادةَ على الإفراد أيضاً: «شَقَقْتِ».

ومرَّ على ذكر أشياء ممّا سلف بينهما في الزَّهراء، وقال[٢٧]:

كـلٌّ يهـيجُ **لنـا ذِكـرى** تُشَـوقُنا إليكِ لم **يَعْدُ عنها الصَّدْرُ** أَنْ ضاقا
لا سَـكّن اللهُ قلبـاً عَـنّ **ذِكـركمُ** فلـم يطِـرْ بجنـاحِ الشـوق خَفَّاقـا

وجعل الضميرين (عنه وعنها) على هذا الوجه:

لو كان وَفّى المُنى في **جمعنـا** بِكُـمُ لكـان مـن أكـرم الأَيـام أَخْلاقـا

وختم القصيدة، على هذا المنهج:

فـالآن، أَحْمـدَ مـا **كُنّـا** لعهـدكمُ **سـلوتمُ وبقينـا نحـنُ عُشّـاقا!**

٣) ونختم الوقفة عند ابن زيدون مع قصيدته الذائعة: (أضـحى التنـائي) وقد استخدم ضمير المتكلم بصـيغة الجمـع؛ تعبيـراً عـن نفسـه، فـي أبيـات القصيدة جميعاً، وذكر ولّادة بالنوعين الإفراد والجمع.

---

(٢٦) ديوان ابن زيدون ١٣٥-١٤٠.

(٢٧) ديوان ابن زيدون (علي عبد العظيم): ١٣٥-١٤٠.

- والزهراء: ضاحية بناها عبد الرحمن الناصر لـدين الله، الخليفـة الأمـوي (حكـم مـن ٣٠٠ إلى ٣٥٠هـ)، وكانت بلدةً نموذجيّة في حسن المباني وجمال التقسـيم، وروعـة الهندسـة. وكان يطيفُ بها حدائق واسعة جـدّاً، أحكـم صـنعتها مهندسـون زراعيـون بـارعون، أشـرف عليهم الحكم بن عبد الرحمن (تلقب حـين ولـي الخلافـة بالمستنصـر بـالله ٣٥٠-٣٦٦هـ)، وكان مولعاً بالبستنة والتنظـيم واسـتجلاب الـزروع، علـى أن شـهرته كانـت بـالعلم والأدب والفن، وبمكتبة قرطبة التي أنشأها، وكانت تضارع أكبر مكتبة في العالم القديم.

- وهذا يوضح وقـوف ابـن زيـدون علـى جِنـانِ الزَّهـراء وخلطـه الغـزل بوصـف الطبيعة، وبالذكريات الموصوفة.

وقد أفاد هذا الأسلوبُ القصيدةَ في إضافةِ ملمحٍ موسيقيٍّ وبَلاغيّ. وفيها، من أَوَّلها:

١- أَضْحى التّنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيبِ لُقيانا تجافينا

فالكلام هنا يشملُ ولادة وابن زيدون معاً، وقد قال بعده:

٢- ألّا، وقد حان صبحُ البَيْنِ **صَبَّحَنا** حَيْنٌ فقامَ **بنا** للحَيْنِ ناعينا

والكلام هنا يخصّ ابن زيدون وحده، فالموتُ كانَ أخفَّ عليه من فراق الأحبة أَو جفائهم. ثم قال بعد:

٣- مَنْ مبلغ **المُلبسينا** بانتزاحهمُ حُزناً مع الدَّهر لا يَبْلى و**يُبلينا**

٤- أنّ الزمان الذي ما زال **يُضحكنا** أنساً بقربهمُ قد عاد **يبكينا**

فـ«الملبسينا» و«بانتزاحهم» عن ولادة وحدها، و«يُبلينا» خاص بابن زيدون.

والبيت الرابع من شأن الشاعر، وذكر ولادة بصيغة الجمع «بقربهمُ» فهي مجموعة، ويخاطَبُ بها المذكر عادةً.

وتستمر القصيدة على هذه الشاكلة، ولم يذكر ابن زيدون نفسه، ولم يشر إليها، ولو مرّة واحدة، بصيغة الإفراد. وهو هنا حَتْماً لا يريد من صيغة الجمع التفاخر ولا التعاظم، وأظنّ ظن الاعتقاد أنه على العكس من ذلك، وانظر قوله في هذه القصيدة (في البيت الثلاثين):

ما ضَرَّ أَنْ **لم نكنْ أكفاءَهُ شَرفاً** **وفي المودَّةِ كافٍ** من تَكافِينا

ونقف عند قصيدة لشاعر من العصر المملوكي هو: أبو العَبّاس أحمد بن أبي القاسم اللَّخميّ القُطْرُسِيّ، الشهير بلقب: النَّفيس (توفي سنة ٦٠٣). وقد اختار ابن خلّكان من شعره، وأثنى عليه، وترجم له في الوفيات[٢٨]. ومطلع القصيدة:

(٢٨) وفيات الأعيان ١: ١٦٤-١٦٨.

قل للحبيبِ أَطَلْتَ صَدَّكْ وجَعَلْتَ قلبي فيه وَكْدَكْ

وفيها قوله:

أَخلَفْتَ حتى في زيا ... رتنا بطَيفٍ منك وَعْدَكْ

وقوله:

يا قَلْبَ مَنْ لانت مَعَا ... طِفهُ **علينا** ما أشدّكْ

ونلاحظ التفاتَ الشاعر (التفاتاً ذاتيّاً)، وهو يخاطب الحبيب: «أَخْلَفْتَ وعدك في **زيارتنا** بطيف منك...» وقال: «يا قلبَ مَنْ لانَتْ معاطفه **عَلَيْنا**...» وهو يتحدث عن نفسه مفرداً، شاكياً ممّا أصابه من عَنَتِ المحبوب شخصاً، وطيفاً. ولا مَدْخل للتكبُّرِ أو التعاظم في الكلام صراحةً أو إشارةً.

ولأحمد شوقي قصيدة نظمها في الأندلس حين كان منفيّاً عن بلده مصر، أولها[٢٩]:

يا نائح الطَّلْحِ أشباهٌ عَوادينا نَشْجى لواديك أم نأسى لوادينا؟!

وقد اجتمع للشاعر أسى بُعْدِه عن وطنه (الصّغير): مصر، وأَسى ضياع الفردوس المفقود: الأَندلس؛ كنّى عن مصر بـ(وادي النّيل) - وهي كناية مشهورة -، وكنّى عن الأندلس بوادي الطلح وهو وادٍ بظاهر إشبيلية «كان المعتمد بن عَبّاد أمير إشبيلية (من ملوك الطوائف) شديد الولع به».

ونائح الطلح: طائر رَجَّع صوتَهُ، فنبّه الشاعِرَ، وجرى الشعْرُ على لسانِه، وحَرّكَ أَسَاهُ على الوطنَيْنِ: بلده مصر، وديار الأندلس التي كانت من أوطانِ العرب والمسلمين زماناً طويلاً. وقد أَكْثرَ الأدباء والشعراء والمؤرخون من وصفها بـ(الفردوس المفقود).

واختار شوقي في هذه القصيدة للحديث عن نفسه وأحواله وشكاواه،

(٢٩) ديوان أحمد شوقي (بعناية د.أحمد الحوفي) ١: ١٤٧.

وهواجسه وأَشواقه وذكرياته **ضمير المتكلم الدالّ على الجمع**، ولم يخرج عن هذا الأسلوب.

وفي آخر القصيدة، التفتَ الشاعر إلى مصر، وذكرياتِهِ فيها، وصارت ضَمائر الجمع عامّة: يُدخِلُ نَفْسَهُ فيها وتشملُ الآخرين، وذلك ابتداء من قوله:

سقياً لعهدٍ كأكنافِ الرُّبَا رِفَةً ... أَنّى ذَهبْنا وأعطافِ الصِّبا لِيْنا

وبعد مطلع القصيدة قولُه يخاطب ذلك الطائر (الصّديق):

مَاذا تقصُّ علينا، غيرَ أنّ يداً ... قصَّتْ جناحَكَ جالت في حَواشينا

رَمَى بنا البينُ أَيكاً غير سامرنا ... أَخا الغريب وظلّاً غَيْرَ نادينا

كلُّ رَمَتهُ النَّوى، رِيْشَ الفراقُ لنا ... سَهْماً، وسَلَّ عليك البَيْنُ سكِّينا

والقصيدة طويلة. وممّا قاله في انتقاله عن الموطن إلى «المنفى» أَبياتٌ أَحسنَ فيها التَّناول، ومزج بين الخُلْدَين: خُلد بلده الحاضر (الذي انتقل عنه قسراً) وخُلدِ تاريخه القديم – الجديد (الأندلس)؛ وأَتْقَنَ الدخول، والتعبير، والاستفاضة، وأَحاط ذلك كله بنفحاتٍ عاطفيّةٍ متعدّدة الجوانب:

لمّا نَبا **الخُلْدُ** نابت عنه **نُسْخَتُهُ** ... تَماثُلَ الوَرْدِ: خِيْريّاً ونِسْرِينا

نسقي ثراهُمْ ثناءً، كلّما نُثِرَتْ ... **دموعُنا** نُظِمت منها **مراثينا**

كادت عيونُ **قوافينا** تحرّكهُ ... وكِدْنَ يوْقِظْنَ في التُّربِ السَّلاطينا

لكنَّ مِصْرَ وإن أَغْضَتْ على مِقَةٍ ... عينٌ من الخُلْدِ بالكافور **تَسْقينا**

وقد أَثنى شوقي في هذه القصيدة، وفي سائر أندلسياته على بُناة الحضارة في الأندلس، وخَصَّ بني أُميّة بكثير من ثنائه ورثائه وإشادته وتكريمه؛ واستطرد إلى شيءٍ من هذا في بعض شاميَّاتِهِ، كالذي صنعه في «قم ناجِ جِلّق»...

والتفتَ بنفسِه، وكُلِّ ما عنده من حُبٍّ وودٍّ وشوقٍ ولهفةٍ إلى مصر[٣٠]:

(٣٠) ديوان شوقي ١: ١٤٩.

يا ساريَ البرقِ يرمي عن **جوانحنا** بعد الهُدوءِ ويَهْمِي عـن **مآقينا**[٣١]
لمّا تَرَقْـرَقَ فـي دمـع السَّـماءِ دمـاً هَاجَ البكا **فَخضَـبْنا الأرض باكينـا**
اللّيـلُ يشـهد لـم تهتِـكْ دياجِيَـهُ علـى نيـامٍ ولـم تهتـفْ **بسـالينا**
والـنجمُ **لـم يَرنـا** إلَّا علـى قَـدمٍ قيـامَ ليـل الهـوى للعَهْـدِ **راعينـا**
كَزفـرةٍ فـي سـماءِ اللّيـل حـائرةٍ ممّـا تـردّد فيـهِ حـين **يُضْـوِينا**

واستمر شوقي في اختيار ضمير المتكلم الموضوع للجماعة، وهو يريد نَفْسَهُ، وَحْدَها، في «انسجامٍ» واسترسال وتدفّق.

– وفي قصيدة (والزمان وليد)[٣٢] قال شوقي (في أوّلها):

يَمُـدّ الـدُّجا فـي **لـوعتي** ويزيـدُ ويُبْـدِئُ بَثّـي فـي الهـوى ويُعِيْـدُ
إذا طال واستَعْصَـى فمـا هـي ليلـةٌ ولكـنْ ليـالٍ مـا لهـنَّ عديـدُ
أَرِقْـتُ وعـادتني **لـذكرى أحبّتـي** شـجونٌ قيـامٌ بالضـلوع قُعـودُ
ومن يحملِ الأشواقَ يَتْعَبْ ويختلفْ عليـه قـديمٌ فـي الهـوى وجديـدُ

ثم استطرد الشاعر إلى صفة روضٍ مونق مُعْجبٍ حتى قال: إنّه دَخَل ذلك الرَّوض مع مَنْ يُحبّ:

غشـيناهُ والأيّـامُ تَنْـدى شـبيبةً ويقطـر منهـا العـيشُ وهـو رغيـدُ
رأتْ شـفقاً ينعـى النَّهـار مضـرّجاً **فقلـتُ** لهـا: حتـى النَّهـارُ شـهيدُ
فقالت: وما بالطير؟ **قلـت** سكينة فمـا هـي ممّـا نبتغـي ونَصـيدُ
أُحِلَّ لنا الصَّيْدان يوم الهـوى مَهـاً ويـوم تُسَـلُّ المُرْهَفـاتُ أسـودُ
يحطَّـمُ رمـحٌ **دوننـا** ومُهَنَّـدٌ **ويقتلنـا** لحـظٌ ويأسِـرُ جِيـدُ
ونَحْكُم حتى يقبل الـدهرُ **حُكْمَنـا** ونحـن لسـلطان الغَـرام عبيـدُ

(٣١) الهدوء، والهدوّ: السكون في الليل (وغيره).

(٣٢) ديوان شوقي ٢: ١١٠، والعنوان من صنعة د.أحمد الحوفي.

أقـول لأيـام الصِّـبا كلّمـا نـأت ... أما لكَ يـا عَهْـدَ الشـباب مُعيـدُ؟!
وكيفَ نأتْ والأمسُ آخِـرُ عهـدها ... لأمـسِ كبـاقي الغـابراتِ عَهِيـدُ
جزعتُ فراعَتْني من الشَّيبِ بَسْـمةٌ ... كـأني علـى درب المشـيبِ لَبِيْـدُ
ومن عَبثِ الدُّنيا وما عَبَثتْ سُـدًى ... **شَـبَبْنا وشِـبْنا**، والزّمـانُ وليـدُ!

وأسلوب الالتفات الـذاتي الـذي نـديرُ الحـديث عنـه شـائع فـي كـلام النّاس مكتوباً ومنطوقاً، وهو جـارٍ علـى مـا بيّنّـا مـن التـراث العربـي القـديم الموصول بالحديث.

- يكتبُ أحدهم لصديقه بطاقةً، ويتركها عند البـاب أَو فـي مكتبـه، ومـا شابه، ويقول: «**حضرنا** ولم نجدكم»، وهو يريد نفسه.

- ويسأل أحدهم زميله: هل صلّيتَ؟ يريـد إقامـةَ صـلاةِ جماعـةٍ، فيـردّ صاحبه: «**دعونا** لكم»: أي صليت وذكرتك في الدعاء الذي أعقب الصلاة.

- وتقول السيدة، وهي تغادر منزل صديقتها: «**أودعنـاكم**»[٣٣]، فتـردّ صـاحبة الدار: مع السّلامة، وهي عبارة يقولها الفرد للفرد والجماعة للجماعة.

- ويقول أحدهم لصديقٍ غاب مدَّةً: **سألنا** عنكم، انشغل بالنا...

- ويقول أحدهم لربّ العمل: **جئنا** لنعيّدكم...

ومثل هذا كثيرٌ فاشٍ، يؤكـد وصـول هـذا الأُسـلوب إلـى كـلام النـاس؛ وإيراده من دون أن يخشى المتكلم وقوع لبسٍ فيما يقول.

هذه الظاهرة:

لقد نَبّه هذا البحث، كما تَبيَّنَ مما سبق، علـى هـذا النـوع مـن الالتفـات الذي اقترحنا له: **الالتفات الذّاتي**، ويصـحُّ أن يقـال فيـه: **الالتفـات الـدّاخلي** أَيضاً، **والالتفات الوجداني**. وفيه ينتقل المـتكلم المفـرد مـن صـيغة الإفـراد

(٣٣) والعبارة جارية على المنهج الفصيح؛ أي تركتكِ في حفظ الله ورعايته.

وهي المناسبة لدرج الكلام – دون قصد التّبجيل للذات أَو التعظيم، أَو التفخيم – إلى صِيغة الجمع، ونبّه البحث على اطّراد هذا الملمح من العصر الجاهلي، استمراراً في العُصور المتوالية، ولجأ إليه بعض الأدباء (الشعراء خاصّة)، وكان في ذلك تلوينٌ للأسلوب، وزيادةٌ يريدها المتكلّم قد تبدو واضحةً، أو هي تُستَنْتَجُ من سِيَاقِ الكلام.

وتنفتحُ للدّارس أسبابٌ لانتقال المتكلم من صيغة الإفراد إلى صيغة الجمع، وهو يعني نفسه دون قصد التعظيم والفخر والتفخيم. وهي أسباب قد تجتمع في نصّ، وقد تكون كلُّ حالٍ في حاجة إلى تعليل محدّد. وهي أسبابٌ مستنبطة من النصوص المختلفة على امتداد العصور الأدبيّة.

تحليل وتعليل:

أولاً: العدول عن صيغة المفرد المتكلِّم إلى صيغة الجمع، أو تداخل الأسلوبين في النصّ الواحد يكونُ **تلويناً أُسلوبيّاً**، أراد الأديب (ولا سيما الشاعر) أَن يُضْفِيَ جدّةً أو حيويّة على الكلام، أو يُفيد من اختلاف الإيقاع والإيحاء.

ثانياً: قد يكون الالتفات إلى صيغة الجمع **عُدولاً عن صيغة المفرد كيلا توحي صيغةُ المفردِ بإبراز «الذّات»، وليتجنّب المتكلم أي ملمحٍ قد يلاحَظُ؛ يكونُ فيه تَعالٍ من المتكلم على المخاطب أو اقتحامٌ لمكانته.**

هنا يكون اللجوء إلى صيغة الجمع إدخالاً من المتكلم لذاته في «آخَرِين» خشيةَ أن تبرز الـ«أنا» صريحةً قويّةً.

وتكونُ **صيغةُ الجمع في هذه الحال مخفِّفة لإيحاء صيغة الإفراد من التّعاظم في درج الكلام.**

ثالثاً: قد يكون ذلك من باب **الاستغراق الشّخصي في القضية** أو الموقف؛ وهو استغراقٌ يُتيح الانتقال من المفرد إلى الجمع، فإذا تحقّق له

ذلك رجَع إلى صيغة المفرد **لتوكيد الذات**. ولنقرأ بعضَ ما قاله حاتم:

أَمـاوِيَّ إن يُصـبحْ صَـدايَ بقفـرةٍ من الأَرضِ لا مـاءٌ لـديَّ ولا خَمْـرُ
تَرَيْ أنّ ما **أنفقْـتُ** لـم يـكُ ضَـرَّني وأَنَّ يـدي ممّـا **بخلْـتُ** بِـهِ صِـفْرُ
وقـد عَلِـمَ الأقـوامُ **لـو أَنَّ حاتمـاً أَرادَ** ثـراءَ المـالِ كـانَ **لـه** وَفْـرُ
غَنِيْنـا زمانـاً بالتَّصـعلك والغِنـى كما الدَّهْرُ في أَيامِهِ العُسْرُ واليُسْرُ[٣٤]

فهذه ثلاثة أساليب متوالية: المتكلم المفرد: (ما أنفقتُ، بخلتُ)، والغائب: (أراد... كان له)، والمتكلّم بصيغة الجمع: (غَنينا).

وقد استمرّ حاتم على هذا الصيغة حتى انتهى من الفكرة كاملةً. لقد استغرقت الأبياتُ شَخْصَهُ موصولاً بقضيّته: الكرم والجود، ومكارم الأخلاق... فلما استوفى هذا الجانب بالصّوت الصدّاح عاد إلى **توكيد الذات** مع سَكينةِ الاطمئنانِ إلى **تبليغِ الموقفِ إلى ماوية وسائرِ النَّاس** (وقد مرّت الإشارة إلى جانبٍ من هذا الملمح).

رابعاً: قد يرتفع الصوتُ الصَّدّاحُ للشَاعر، وهو ينتقل من المُفرد إلى الجمع، وهو في معرض **الدفاع عن الذّات، وإثباتِ الشَّخصيّة**، ورفعِ الغُبْنِ، والإيحاءِ بصوتٍ جَماعي مفيدٍ لمثلِ هذهِ المَواقف، ومنه قول أبي الطيّب:

مـا كـان أَخْلَقَنـا مـنكم بتكرمـةٍ لـو أَنَّ أَمْـرَكُم مـن **أمرنـا** أَمَـمُ
وبيننـا لـو رعَيْـتُم ذاك معرفـةٌ إِنَّ المعارفَ في أهل النهى ذِمَـمُ

خامساً: قد يبدو للقارئ أَنّ الشاعر خرج إلى صيغة الجمع **لإثبات القضيّة، وليسَ لتوكيد الذات**، فإنَّ ابنَ زيدون – مثلاً – استرسل في صيغة المفرد في قصيدة: إني ذكرتك بالزهراء....

(٣٤) يقول: اكتفينا في حال الفقر بما تيسّر، وإن قلّ، واستمتعنا بأيام الغنى بأحوال الغِنى.

واستمرّ على هذا الأسلوب إلى أواخر القصيدة حتى قال في آخر بيتين:

كان التّجازي بِمَحْضِ الوُدِّ مذ زَمـنٍ ميـدان أُنـس جَرَيْنـا فيـه أطلاقـا

فـ(نا) «جرينا» لابن زيدون ومخاطَبتِه معاً، ثم قال:

فـالآنَ أَحْمَـدَ مـا **كنَّـا** لعهـدكمُ سـلوتُمُ، **وبقينـا نحـنُ عُشـاقا!**

فهو يعلنُ استمرارَ الوُدّ قويّاً من جِهته (أحْمَد ما كـان للعهـد، واسـتمرار حال العِشق). وهـذه يناسـبها أو يزيـدُ فـي مناسـبتها ضـميرُ الجمـع لإثبـات الاستمرار والاستغراق والدَّيمومة...

ثم أقول: كأنَّ المرادَ من قول ابن زيدون: «وبقينا نحن عُشاقا» هو: بقي عشقي الكبير العظيم الذي لا يُذْهِبُ جِدَّتَهُ ولا يَفُلُّ حِدَّتَهُ مرورُ اللّيالي والأَيّام!....

سادساً: نلاحظ ملمحاً آخر في انتقال المـتكلم المفـرد إلـى صـيغة الجمـع في شعر أحمد شوقي، وهو **الإشباع النّفسي للحال** التي يكون عليها الشـاعر؛ **أَوْ يَسْتَحْضِرُها؛** فبعدَ أَنْ ذكرَ الشاعر أحبّته استطرد إلى صفةِ روضٍ (وشـوقي يُـتقن مثل ذلك الوصف) وأطال – كما سبق في قصيدته (والزمان وليد) – حتى خـتم الفقرة وجمع فيها (في آخر بيتين) بين صيغة الإفراد وصيغة الجمع:

جزعتُ **فراعَتْني** من الشيبِ بَسْـمَةٌ **كـأَنّي** علـى دَرْبِ المشـيبِ لَبِيـدُ

ومن عبَثِ الدُّنيا وما عبثَتْ سُـدًى **شَـبَبْنا وشِـبْنا** والزَّمـانُ وليـدُ!

فقد **أعان الشّاعِرَ على مقصده من ذكريات أَيّام الشَّـبابِ هـذا الانتقـالُ إلـى صيغةِ الجمع** أكثر من مرَّةٍ، فقد روَى ما أمْتَع قلبه ونفسـه فيمـا مضـى، واسـتعادَ تلكَ الذكريات مُستمتعاً بتلك الإعادة، مستعيناً بالأُسلوبِ الذي نَتحدّث عنه.

إذن:

يضاف إلى نوع **الالتفات** في علم البديع فَرْعٌ لم يذكره السّابقون هـو مـا أطلقنا عليـه: **الالتفـات الوجـداني،** ويصـحّ أن يقـال فيـه: الالتفـات الـذاتي، والالتفات الداخلي.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني (أبو الفرج) – الأغاني – دار الكتب المصرية – القاهرة.
- ابن بُرد (بشار) – ديوان بشار – تحقيق محمد الطاهر بن عاشور – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ٣ أجزاء، والجزء الرابع المتمّم.
- ابن بسام الشنتريني – علي بن بسام، أبو الحسن – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ت. إحسان عباس – الدار العربية للكتاب – ليبيا – ١٣٩٥هـ-١٩٧٥.
- التبريزي (يحيى بن علي) – المُوضح في شعر أبي الطيب – دراسة وتحقيق د.خلف رشيد نعمان – دار الشؤون الثقافية – بغداد – الطبعة الأولى – بغداد – ٢٠٠٤.
- الحموي (ياقوت) معجم البلدان – دار صادر – بيروت.
- ابن خلّكان (أحمد بن محمد، شمس الدين) وفيات الأعيان – تحقيق د.إحسان عباس – دار صادر.
- الذبياني (النابغة) – ديوان النابغة الذبياني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة.
- الذهبي (أحمد بن محمد بن عثمان بن قايماز) – سير أعلام النبلاء – مؤسسة الرسالة – دمشق.
- الزركلي (خير الدين) – الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت.
- ابن زيدون – ديوان ابن زيدون – تحقيق علي عبد العظيم.
- السامرائي (فاضل) – لمسات بيانية (نسخة إلكترونية).

- شوقي (أحمد) - ديوان شوقي - عناية أحمد الحوفي - نهضة مصر - القاهرة - د.ت.
- فَرّوخ (عمر) - تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت.
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد) - الشعر والشعراء - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
- ابن قميئة (عمرو بن قميئة) - ديوان عمرو بن قميئة - معهد المخطوطات - القاهرة.
- مطلوب (أحمد) - معجم مصطلحات البلاغة - بغداد.

* * *